الأهرام

المصدر: الحياه

التاريخ : ٩ مـاس ٢٠٠٥

نحو ربيع لبناني أم نحو جحيم إقليمي؟

حسن نافعة *

■ إلـى أين تتجه كرة نار المشـتعلة والمتدحرجـة من أعلى جبل لبنـان. المتفائلون يرون فيها نذيراً بقـرب انبلاج صبح طال انتظاره، أو بشـيراً بمقـدم ربيع مبكر ينعـم به هذا البلد الصغيـر الجميل، أو وهج قـادر على تبديد عتمة فضاء الاسـتبداد المحيط وإضاءته بنور الحريـة والديموقراطيـة. أما المتشـائمون فيرون فيها شـرارة قابلة لإشـعال حريق كبير ليس فقط في البيت اللبناني المتصدع، وإنما في المنطقة العربية المأزومة بأسـرها. ولأنه لا يوجد في علم السياسـة، أو فـي عالمها، حتميات من أي نوع، فمن الواضح أن مسـتقبل لبنان والمنطقة، باتا مفتوحين على كل الاحتمالات.

ويثير خطاب الرئيس بشـار الأسـد مشـاعر متضاربة تراوح بين الطمأنينة والقلق في آن. أما الطمأنينة فمصدرها إحساس باستيعاب القيادة السـورية لما يجري في العالم وما يحاك حولها من مؤامرات، وتصميمها بالتالي على التعامل معه بحنكة قادرة على الاسـتفادة من أخطـاء تم الاعتراف بارتكابها في الماضـي. وأما القلق فمصدره عدم الثقة في نيات وسلوك اللاعبين المتنافسين على الساحة اللبنانية في المرحلة المقبلة، والإحسـاس بوطأة الخلـل القائم في موازين القوى القائمـة بينهم. ويخالجني شـعور بـأن القرار الصائـب الذي اتخذه الرئيس بشـار الأسد بانسحاب ما تبقى من الجيش السوري في لبنان إلـى البقاع ثم إلى الحدود السـورية اللبنانية لـن يكون نهاية الأزمة، وإنما بدايـة لمرحلة جديدة من مراحل تطورها. صحيح أن هذا القرار يقـذف بالكرة إلي الداخل اللبناني، إلا أنه يفتح في الوقت نفسـه باب التنافـس على مصراعيه، من جديد، أمام كل القوى المحلية والإقليمية والعالمية الطامحة في ملء الفراغ الذي يتركه هذا الانسحاب.

والواقع أن المتأمل لطبيعة الصراع الذي تشهده الساحة اللبنانية سرعان ما يكتشف أن ما يجرى فوق السطح قد لا يعكس بالضرورة ما يدور في الأعماق. ومن المعروف أن صراعا مكتوما كان قد راح يتبلور منذ فترة بين تيارين، أحدهما يرى أن مصلحة لبنان الاسـتراتيجية تكمـن في دعم المقاومة وتقوية علاقة الارتباط مع سـورية، خصوصا في سـياق البحث المشـترك عن تسـوية عادلة وشـاملة للصراع في الشـرق الأوسـط، والآخر يرى أن مصلحة لبنان الاسـتراتيجية تكمن في فـك هذا الارتباط تحديـدا، وإعادة بناء تحالفات لبنـان التقليدية مع القوى الغربية، وخاصة مع فرنسـا والولايات المتحدة. وإذا كانت الانتصارات الضخمة التي حققتها المقاومة اللبنانية قد أسـهمت في ترجيح كفة التيار الأول في البداية، فإن عدم تنفيذ سـورية لالتزاماتها كاملـة بموجـب اتفاق الطائـف، بصرف النظر عن وجاهة ما تسـوقه مـن أعذار ومبررات، وارتـكاب أجهزتها الأمنية فـي لبنان لتجاوزات معترف بها، كانت ضمن عوامل عديدة تسـببت في إحداث شـروخ في العلاقة بيـن فصائل الحركـة الوطنية اللبنانية، وهي شـروخ راحت تكبر وتتسـع حتى وصلت إلى ما يشـبه القطيعة فـي أعقاب التمديد للسـيد إميل لحود. وعندما نجحت القوى الشـريرة في ارتكاب جريمة اغتيال رفيـق الحريري بدأ الصـراع المكتوم يتحول إلى اسـتقطاب مفتوح بين معسـكرين: «الموالاة» و«المعارضة». وبينما راح معسـكر «المعارضة» يهيء نفسـه لاحتلال موقع الهجوم رافعا شعار «استقلال لبنان» وتحريره من «الاحتلال السوري» متهماً المعسكر الآخر بموالاة الاحتلال وتكريسه، وجد معسـكر «الموالاة» نفسه محشوراً في خندق الدفاع عن صمود لبنان ومتهما معسكر «المعارضة» بالموالاة للولايات المتحدة وإسرائيل وتحوله إلى أداة أو مخلب قط لتنفيذ مخططاتهما الراميـة إلى تصفية المقاومة والتوطين والعودة بلبنان إلى مرحلة ما قبل اتفاق ١٧ آيار.

ولا جـدال في أن التفاعلات المحليـة والإقليمية والدولية الناجمة عن جريمة اغتيال الحريري دفعت بالرياح في شـراع سـفن معسـكر "المعارضة" الذي اعتقد أن الكفة بدأت تميل لمصلحة، وراح يتصرف وكأنه يسـيطر على الشارع اللبناني. وبدت السـاحة اللبنانية، لحظة اشـتعال مشـهد الأعلام اللبنانية المرفوعة بكثافة لافتـة للأنظار في سـاحة الشهداء أثناء الجلسة السـاخنة للبرلمان اللبناني والتي قدم فيها رشـيد كرامي اسـتقالته، وكأنها مستنسـخة من مشهد أوكراني تم اسـتحضاره خصيصا للإيحاء بأن فجرا جديدا يوشك على البزوغ في لبنان، وأن الشـرار المتطاير منها سيشعل لامحالة زيت الانتفاضة العربية الديموقراطية الكبرى والوشـيكة!. ومرة أخرى تعمدت وسائل الدعاية الغربية إغفال حقيقة أن مشـهد ساحة الشهداء صنعته أحداث وظـروف محلية وإقليمية ودولية اسـتثنائية أدت إلى اختلاط الحابل بالنابـل، وبالتالي لا يجوزالقياس أو التأسـيس عليها لاسـتخلاص نتائج تتعلق بالمستقبل.

فداخل معسـكر «المعارضة» طمست الشـعارات المدغدغة لمشاعر الوطنيـة اللبنانيـة المطالبة بانسـحاب الجيش السـوري وتحميل السـلطة اللبنانيـة وأجهزة الأمن السـورية مسـؤولية اغتيال رفيق الحريري، حقيقة الاختلافات العميقة بين فصائله، وبات الفرز والتمييز داخل هذا المشـهد بين الفصائل التي ترفع تلك الشـعارات من منطلق الحـرص على إعادة تصحيح وبناء العلاقات السـورية اللبنانية على أسـس جديدة تؤكد وحدة الهدف والمصير المشـترك، وبين الفصائل التي ترفع الشـعارات نفسـها تنفيذا لأجندة خارجية: إسـرائيلية أو أميركية أو فرنسـية، أمرا بالغ الصعوبة. أما داخل معسـكر «الموالاة» فقد طمست الشـعارات المنادية بوحدة الهدف والمصير، إمكان الفرز بين القوى المؤمنة حقا باستقلال لبنان وعروبته، والقوى التي توقفت درجـة عروبتها علـى مقدار الدعم السياسـي والاقتصادي الذي كانت تقدمه لها أجهزة الأمن السـورية طمعا فـي مقعد نيابي هنا أو صفقة تجارية هناك!.

وفي سـياق اختلاط الحابل بالنابل على هذا النحو أمكن تسويق وترويـج مقولة أن معسـكر المعارضـة أصبح يملك ناصية الشـارع اللبنانـي وبـات قادرا علـى توجيهه إلى حيث يريد، وأنه على وشـك تحقيـق انتصـار تاريخـي لاسـتعادة الديموقراطية فـي لبنان وفي المنطقـة!. وهكذا تصـورت القوى الأجنبية المتطلعـة لعودة نفوذها المفقـود في لبنان أن هذا البلد الصغير بات ثمرة ناضجة على وشـك السقوط، وبدأت تستعد للاحتفال بالنصر وبعودة قريبة إلى الأوضاع التي كانت سائدة قبل ١٧ أيار. غير أن هذا الاستنتاج يبدو لي متعجلاً جداً وينطلـق من أحلام وأماني أكثر مما ينطلق من حسـابات دقيقة. فالمعركة لم تحسـم بعد، بل ومرشـحة لأن تشـهد تطوراً معاكساً في الأيام والأسابيع المقبلة.

وفي تقديري أن بإمكان قرار رشـيد كرامي، الشـجاع، بالاسـتقالة وقرار الرئيس السوري، الحكيم، بالانسحاب إلى البقاع ثم إلى الحدود السـورية-اللبنانية، أن يعيـدا الأمور إلى نصابهـا، وهو ما يعني أن السـاحة اللبنانية باتت مقبلة على عملية، نأمل أن تكون جادة وواعية لإعـادة ترتيـب الأوراق وفرز القوى وتشـكيل وبنـاء التحالفات على أسس جديدة وشفافة. فأمام الضغط المنسق من جانب القوى المحلية والإقليمية والدولية الرامية إلى فرض تسـوية بالشروط الإسرائيلية، لم يعد أمام القوى الوطنية اللبنانية من خيار آخر سـوى إعادة ترتيب صفوفها وبناء أوسـع وحـدة ممكنة قابلة للتجمع حول شـعار واحد وهو حمايـة المقاومة التي صنعت انتصار لبنـان وأعادت إليه عزته وكرامتـه. فلم يعد خافياً على أحد أن تصفية حزب الله وفرض توطين الفلسـطينيين المقيمين في لبنان هو الهدف الأول الذي تسعى القوى التـي فرضت القرار ١٥٥٩ لتحقيقه. وفي هذا السـياق يبدو حزب الله هو القوة السياسـية اللبنانية الرئيسية المرشحة لتشكيل نواة صلبة

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

قابلــة لأن تلتف حولها كل القوى الوطنية الرافضة للتوطين ولتصفية المقاومة والقادرة على عزل وتهميش القوى المنفذة لأجندة أميركية - إسرائيلية. ولحسن الحظ تحظى قيادة حزب الله، ممثلة في السيد حسن نصر الله، بتقدير يتجاوز خطوط التقسيم الطائفي والأيديولوجي كافة بما يمكنه من لعب دور محوري لإجهاض المؤامرة الراهنة.

على صعيد آخر، فسيكون من الوهم الاعتقاد بأن انسحاب القوات الســورية إلى البقاع، أو حتى إلى الحدود اللبنانية-السورية سيخفف الضغط الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة لحساب إسرائيل. فالفكر الــذي يقود ســلوك الإدارة الأميركيــة الحالية بات مقتنعــا إلى درجة اليقين أن التسوية الممكنة الوحيدة لاتتحقق إلا بالشروط الإسرائيلية (دولة فلسطينية شكلية في حدود الجدار العازل وتوطين الفلسطينيين حيث هم)، وأن فرض هذه التسوية لن يتحقق إلا بعد إسقاط النظامين السوري والإيراني. ولأنه كان واضحا منذ فترة أن الضغط على سورية سيتم عبر إثارة القلاقل على الجبهة اللبنانية، وأن الضغط على إيران ســيتم باســتخدام برنامجها النووي كذريعة، فمــن المتوقع أن تعتبر الإدارة الأميركية أن ما جاء في خطاب الرئيس بشــار الأســد غير كاف لتنفيذ ما ورد في القرار ١٥٥٩، على رغم أن سورية ستكون قد أوفت فعلاً بتنفيذ ما يخصها في هذا القرار عندما تكمل سحب قواتها إلى الحدود مــع لبنان. ولا جــدال في أن الولايات المتحدة ســتحاول أن تجعل من القرار ١٥٥٩ مسـمار جحا بالنسبة إلى سورية مثلما كان القرار ١٤٤١ بالنســبة إلى العراق. ولا جدال عندي كذلك فــي أن الولايات المتحدة، والتــي كانت تأمل في أن لا يتحقق الانســحاب الســوري قبل أن تقوم ســورية بنفسها بالمعاونة في نزع سلاح حزب الله، ستحاول الآن ملء الفراغ الذي أحدثه الانســحاب الســوري من لبنان والتدخل في شئون لبنان الداخلية بكل الوسائل الممكنة، بل وإدارة الانتخابات التشريعية اللبنانية القادمة على نحو يسـمح في نهاية المطاف بتنصيب حكومة لبنانية معادية لســورية ومصممة على نزع ســلاح حــزب الله بحجة ضرورة فرض سيادة الجيش اللبناني على كامل الأراضي اللبنانية.

غير أن ما تهدف إليه الولايات المتحدة شــيء وما تقدر على القيام به هو شــيء آخر. فسورية ليسـت العراق، ولبنان اليوم ليست لبنان ١٩٨٣، وبوسع الشعب اللبناني، خصوصا بعد إتمام انسحاب الجيش الســوري، أن يعثر على صيغة لإدارة علاقة متينة وفعالة بين ســورية ولبنــان توفق بين متطلبات الأمن لــكلا الدولتين في ظل احترام كامل للســيادة اللبنانية. بل إن بوسع الشــعب اللبناني القيام بما هو أكثر مــن ذلك، وهو إســقاط القــرار ١٥٥٩ والــذي يحمل خطر إشــعال نار الفتنــة الطائفية من جديد. فليس من المســتحيل قيــام ائتلاف موحد للقوى الوطنية، الملتفة حول شــعار المقاومــة يكون قادرا على الفوز بغالبية مريحة في الانتخابات التشريعية القادمة التصدي للمخططات الأميركيــة والإســرائيلية في المنطقــة. ولو تم ذلك فســيكون بإمكان الحكومة اللبنانية الجديدة ليس فقط إســقاط القــرار ١٥٥٩ عملياً بل تجاوز اتفاق الطائف نفســه. فليس بوســع أي قوة دولية، بما في ذلك مجلس الأمن نفســه، أن يفرض على دولة شكل العلاقة التي تريدها مع دولــة جارة. وقتهــا يمكن القول إن ربيع لبنــان «الوطني» وليس ربيع لبنان بالمعنى الذي تقصده الولايات المتحدة، قد بدأ.

وفي تقديري إنه إذا تواكــب هذا الجهد اللبناني المتوقع مع جهد ســوري للقيام بالإصلاحات الداخلية التي يتطلع لها الشعب السوري فستصبح الجبهة الســورية - اللبنانية محصنة في مواجهة تحديات المرحلــة المقبلــة والتي تهــدد بتحويــل المنطقة كلها إلــى جحيم. فالديموقراطيــة الملتفة حول الأهداف الوطنيــة والقومية النبيلة هي صمام الأمان الوحيد في مواجهة تلك التحديات.

---

* كاتب وأكاديمي مصري.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية